المضامين والقيمة التاريخية لنقش الملك (شركارير28-23) م

د. الأمين عثمان شعيب

جامعة دنقلا – كلية التربية – مروي

المستخلص:

تهدف هذه الدراسة إلى توضيح أهمية الفن سواء كان نحتاً أو نقشاً أو تصويراً في كشف كثير من الحقائق المتعلقة بالتقاليد والعادات المختلفة، والأوضاع السياسية والاقتصادية والحربية والدينية للشعوب القديمة، وتتعمق هذه الأهمية في حالة غياب اللغة أو عدم التوصل إلى فك طلاسمها وتفسيرها، وهذا ما يصادف الدارس لموضوع هذا النقش بصفة خاصة، فهذا النقش خالي تماماً من الكتابة إذا استثنينا اسم الملك، لكن رغم ذلك فإن ما احتواه من مفردات تم التعبير عنها بالرسم، جعلت من السهل تفسير المضامين المختلفة.

أهمية الفن المروي :

تأثر الفن المروي بالفن المصري بصورة لا يمكن إنكارها أو تجاهلها، كما أنه في نفس الوقت لم يخل من مؤثرات أخرى خارجية، لكن الفن المروي المحلي والمميز ظهر بصورة واضحة فيما يقارب بداية القرن الثالث قبل الميلاد فصاعداً، وهي الفترة التي ظهرت فيها معظم عناصر الحضارة المروية .تأتي أهمية الفن المروي نحتاً وتصويراً نقشاً إذا وضعنا في الاعتبار أن اللغة المروية لا تزال قيد الدراسة ، وأن فهمها لا يزال محدوداً، لذلك بقي الفن المروي بشتى أنواعه الوسيلة الأولى التي من خلالها يمكن أن تتكشف لنا كثير من قيم المرويين وعاداتهم وتقاليدهم ومفاهيمهم الدينية، والأحداث

الهامة التي مرت على دولتهم، وعبروا عنها عن طريق النحت أو النقش أو التصوير، ومن هنا فهو كان وسيلة للتعبير لا غنى عنها على الإطلاق، وستظل كذلك حتى يصبح من الممكن قراءة اللغة المروية وفك رموزها وطلاسمها.

فن التصوير والنقش عند المرويين :

كان هذا الفن من التقاليد المصرية التي دخلت إلى بلاد كوش من مصر، فقد كان تصوير الملوك على حجرات الدفن والمقصورات الجنائزية وجدران المعابد واللوحات الحجرية فناً مصرياً صرفاً، ولم يكن يُعرف في بلاد النوبة، ولكن بعد أن فتح الكوشيون مصر ووضعوا أيديهم عليها وحكموها؛ بدءوا في تقليد الملوك المصريين، وذلك منذ بداية مملكة نبتة، أي حوالي منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، كما تكشف لنا من تصوير الملك كاشتا في لوحته التي وجدت في إلفنتين (Leclant,1978,pp.74-81).

الملك شركارير (٢٣ـ ٢٨م) :

هو الابن الثالث للملك نتكماني (٢ق.م – ٢٣م) والملكة أماني توري، توج إخوته الأكبر أريكانكرير وأريكاخاتاني كأمراء قبله، كان شركارير قد خلف شقيقه أريكانخرير، الذي كان يظهر مع والدته الملكة أماني توري ووالده الملك نتكماني، الذين يبدو أنهما حكما معاً في الفترة ما بين (٢ق.م- ٢٣م). كان أريكانخرير يبدو كأمير متوج، فلما تُوفي حل شركارير محله مع والديهما، وعندما توج شركارير كان ذلك متزامناً مع تشييد معبد عمادا. وجد اسم شركارير في معبد جبل البركل (B- - room 501). يبدو أن والدته الملكة أماني توري توفيت قبل والده نتكماني، فقد اعتلى شركارير العرش بعد وفاة والده (Reisner,1923,PP.34-77).

حكم الملك شركارير في بداية القرن الأول الميلادي في الفترة ما بين (٢٣- ٢٨م) بمفرده، وقد دفن في جبانة البجراوية الشمالية تحت الهرم (بج.١٠(N.10.B Pyramid) وربما كان شركارير هو الأمير الذي كان صورته منحوتة مع والديه في التمثالين الضخمين الذين وجدا في أرقو (Arkell,1961,pp.164-168).

على الرغم من أن الملوك المرويين خلفوا كثيراً من النقوش والتصاوير في النوبة العليا والنوبة السفلى، لكن يعد نقش الملك شركارير الذي خلفه في جبل قيلي في سهول البطانة من أشهر النقوش المروية على الإطلاق(Adams,1977,p.79). يوجد هذا النقش بالقرب في النهاية الجنوبية الغربية لجبل قيلي، ويعد هذا النقش أقصى نقش مروي وجد شرقاً.(Welsby,1998) كان هذا النقش منحوتاً على صخرة جرايتية عند سفح الجبل بطريقة الحفر السطحي، ويغطي مساحة ٣/٧×٣×٤ متراً (Shinnie 1976, p.88).

أول ما يلاحظ على هذا النقش أنه خالي من أي نوع من الكتابة، إذا استثنينا الخراطيش الملكية التي ظهرت في أعلى رأس الملك. يظهر الملك شركارير في هذا النقش بكامل زينته فقد كان يرتدي زياً شبيهاً بالأزياء الملكية التي عرفت من قبل (شكل رقم ١) صور الملك واقفاً قبالة إله الشمس الذي صُور في أعلى النقش على هيئة إنسان ظهر فقط الجزء العلوي من جسمه (رأسه وكتفيه ويديه)، وقد بدت على وجه الإله الملامح الرومانية الواضحة داخل الهالة التي كثيراً ما ارتبطت بالقدسية في الفن الروماني(محمد آدم،٢٠١٠،ص.٩٢)، وكان ينبثق من قرص الشمس نحو اثني عشر شعاعاً (Shinnie. P.88). صُورت يد الإله وهي تحمل حبل يتصل

بحزمة من الحبال رُبطت بها مجموعة من الأسرى وفيما يبدو أنه كان يقدمه للملك شركارير، الذي ظهر في النقش وهو يمسك بطرف الحبل بيده اليمنى التي كان يحمل بها معداته الحربية المكونة من عدداً من السهام وقوساً، السلاح الذي طالما اشتهر به الكوشيين عند المصريين من وقت مبكر حتى صار اسم لبلادهم (تاسيتي) والتي تعني أرض القوس.

استمرت شهرة الكوشيين ومهارتهم في استعمال القوس والسهام حتى الفتح العربي، وذلك على أيام والي مصر عمرو بن العاص الذي ما أن انتهى من فتح مصر حتى حول وجهة انتباهه نحو الجنوب قاصداً أرض النوبة، وذلك لضمان المحافظة على أطراف مصر من ناحية الجنوب، وتأمين التجارة (المسعودي،١٨٦٦،ج٣، ص.ص.٣٨- ٣٩)، فأرسل في سنة ٦٤١م فرقة من الفرسان بقيادة عقبة بن نافع الفهري. واجهت هذه الحملة مقاومة شديدة من قبل النوبيين فضلاً عن مهارة هؤلاء في الرمي بالسهام، حينها ذُهل الفاتحون العرب بما شاهدوه من مهارة النوبيين في رميهم بالسهام، وكيف أنهم كانوا لا يخطأون هدفهم أسماهم المؤرخون العرب رماة الحدق (ابن عبد الحكم، ١٩٢٠، ص.١٦٩)، نسبة لأن جيش عقبة بن نافع رجع بجراحات كثيرة وحدق مفقودة (البلاذري، ١٩٨٣،ص.٢٣٨). بالإضافة إلي تلك الأدوات الحربية حمل الملك شركارير سيفاً ارتفع من كتفه الأيسر بطريقة تشابه طريقة قبائل البجة وبعض القبائل العربية الأخرى في شرق البطانة (Shinnie. op. cit. p.96).

يُلاحظ على خلاف ما كان معهوداً، فقد صور إله الشمس بوجه كامل وليس جانبياً(Profile)، وكان يحمل في يده اليمنى عدداً من قناديل الذرة، الذي ربما كان يمثل المحصول الرئيس للمرويين- كما هو

الآن- ويقدمه للملك الواقف قبالته (Shinnie.p.96) نُقش في أسفل اللوحة وفي مستوى أقدام الملك تصوير لمجموعة أخرى من الأسرى بلغ عددهم نحو سبعة، كان هؤلاء الأسرى عراة، وبدو كأنما كانوا يسبحون في الهواء، كما ظهرت بعض الأشلاء(الأطراف) المبعثرة. كُتب خرطوشان في أعلى صورة الملك، لكنهما لم يكونا مكتوبين بصورة واضحة (Crowfoot,1920,p.99)، لكن رغم عدم الوضوح فإن ذلك لم يمنع المختصين من التمكن من قراءتهما و نسبهما إلي الملك شركارير. احتوى الخرطوش الأول منهما أو الأيسر على اسم الملك شركارير، وقد كُتب بالخط المروي الهيروغليفي ، بينما كان الثاني يحتوي على الاسم الثاني أو أحد ألقاب الملك (بكر،١٩٨٣، ص. ص.٢١٥- ٢١٦). اعتقد هنتزا أن هذا النقش يشير إلى حدوث معركة في جبل قيلي بين مهاجمين يعتقد أنهم من مملكة أكسوم وبين المرويين الذين كان يقودهم الملك شركارير بنفسه .(Hintze,1959,p.189 ff)

إن الأمر الذي ليس فيه أدنى شك أن الغرض من هذا النقش تمجيد وتخليد لانتصار ما حققه الملك شركارير على بعض خصومه، أما كون هؤلاء الخصوم هم الأكسوميين فإن هذا الأمر يحتاج لكثير من الحذر في قبوله والاقتناع به، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن مملكة أكسوم كانت في تلك الفترة دولة ناشئة (القرن الأول الميلادي)، وربما لم تكن تملك الإمكانيات التي تستطيع بها التوغل إلى هذا العمق والوصول إلى داخل المناطق المروية، وعليه ربما كان هؤلاء الأعداء ليس الأكسوميين، وأنهم كانوا من القبائل البدوية الرعوية التي كانت تثير الاضطرابات على المناطق الحدودية للمملكة المروية (محمد آدم، المرجع السابق، ص.١٠٣)، فقد

كان المرويون في كفاح مستمر ضد غارات القبائل البدوية، وتشير كثير من النقوش إلى أن ملوك مروي كثيراً ما قادوا حملات ضد تلك القبائل لإخضاعها أحياناً، ولتأديبها أحياناً أخرى أو للحصول على غنائم من الماشية والرقيق. ولنا نماذج سابقة نجدها في لوحات الملوك أماني نتي يركي (٤٣١- ٤٠٥ ق.م) الذي تحدث في لوحته عن وقوع فتنة قامت بها قبيلة الرهرهس(Rehrehes) على إثر وفاة الملك تلخماني (٤٣٥- ٤٣١ ق.م)عندما ثاروا على جلالته شمال هذه المقاطعة (ربما مروي العاصمة)، كما ذكر أيضاً أنه بعد أن تُوج ملكاً في جبل البركل حارب الميجاو(Macadam,1,pp.50ff) وفي لوحة للملك حرسيوتف (٤٠٤- ٣٦٩ ق.م) الذي ذكر أنه هزم قوم الرهرهس عن آخرهم وكذلك المدد وغلبهم في عدة وقائع (Budge,1912,pp.117-139) ومثلهما الملك نستاسين (٣٣٦- ٣١٥ ق.م)، فقد سجل هؤلاء الملوك كيف أن دولتهم تعرضت لغزو قبائل البدو وأنهم تصدوا لها وهزموها، والمجموعتان اللتان ورد ذكرهما كثيراً كانت تعيشان في المنطقة الواقعة ما بين النيل والبحر الأحمر، وربما كانت كلتاهما أسلاف البجة الحاليين (الحاكم،١٩٨٥.ص.٣١١).

المضامين التي حملتها لوحة شركارير :

نستنتج من هذه اللوحة أن شركارير قد صور في هيئة المنتصر على خصومه ، وإن كان يصعب تحديد هوية هؤلاء الخصوم الذين غطت تصاويرهم المساحة الباقية من الواجهة الصخرية (Crowfoot.1920. p.88)، وإن كان بعض العلماء يعتقدون أن لوحة الملك شركارير نحتت تخليداً للانتصار على أكسوم(Shinnie.p.96) ، دون أن يجد هذا الافتراض ما يدعمه من البينات، خاصة أن الدولتين في تلك الفترة لم

تتوفر الأدلة التي تشير إلى سوء العلاقات بينهما ، وربما كانت العلاقات بينهما في الفترات الأولى جيدة، وأن حالة العداء جاءت متأخرة، ولعل العداء بين الدولتين الجارتين أكدته الأحداث اللاحقة والتي زودتنا بها لوحة الملك الأكسومي عيزانا (٣٢٥- ٣٥٠م)، والتي جاء فيها ما يؤكد غزوه لمملكة مروي وهزيمة ملوكها، والاستيلاء على بعض المناطق التابعة للمملكة المروية، ووضع حد لها في منتصف القرن الرابع الميلادي.(Arkell. op. cit. pp. 168-169) ومن ناحية أخرى لا يوجد أي دليل في مظهر أولئك الأعداء يساعد في معرفة أصلهم كما أسلفنا.

على الرغم مما خلفه المرويون من نقوش كثيرة على جدران المعابد ومقصورات الأهرامات الجنائزية لكن هذا النقش يعتبر ذا قيمة قصوى؛ فهو أقصى نقش مروي وجد إلى الجنوب من مروي، وفي الوقت نفسه تمثل آخر نقش ملكي ذو أهمية في تاريخ كوش.(Adams,op.cit.321) خاصة إذ وضعنا في الاعتبار أن الملوك الذي خلفوا شركارير والذين ربما كانوا تقريباً نحو واحد وعشرين ملكاً، ودفنوا في الجبانة الشمالية، ولم يعرف عن هؤلاء الملوك إلا أسماء بعضهم ، والتي تمت معرفتها من مدافنهم من خلال الحفريات والتي أظهرت أن هذه المدافن كانت آخذة في التدهور شيئاً فشيئاً قبل فترة من مواجهة المملكة المروية لمصيرها ونهايتها على يد مملكة أكسوم في منتصف القرن الرابع الميلادي (Arkell,op.cit.168-169).

يكشف هذا النقش عن مضامين ومعلومات جوهرية كثيرة ما كان من الممكن الحصول عليها لولا العثور على هذا النقش. ففي هذا النقش نجد التفاصيل الكاملة عن الزي الملكي الكوشي والشعارات والرموز الدالة على الملكية الكوشية في تلك الفترة. كما يعطي النقش نموذجاً لطراز الزي

الملكي والزينة الشخصية للملك مثل عقد الخرز الكبير الذي كان يرتديه الملك، والذي كان يمثل جزءاً أساسياً في الزينة الملكية الكوشية. تزين الملك شركارير أيضاً بإسورة على معصميه، كما يكشف النقش عن الرداء الملكي الذي كان ينتهي عند ركبتي الملك اللتين حُليت كل واحدة منهما بتميمة في شكل رأس الكبش الذي يمثل رمز الإله آمون، و قد ظهر جزء من الزي الملكي في شكل قطعة من القماش غطت الكتف الأيسر بصورة تشابه (اللاوي) المعروف عند القبائل النيلية، والذي كان واضحاً في تصوير الملك تانوت أماني في قبره (Ku. 16)وكذلك في قبر والدته كلهاتا(Ku.5) في الجبانة الملكية الأولى في الكرو(Dunham,1950,.pls X1X-XX-X)، وهنا يبدو واضحاً أن الزي الملكي الذي ارتداه ملوك نبتة الأوائل استمر كما هو لم يتغير، وأن أحفادهم الذين حكموا من مروي حافظوا على ذلك الزي الملكي رغم مرور الحقب والسنوات مؤكدين بذلك تقليدهم لأسلافهم الذين حكموا من نبتة ، ومن ناحية أخرى تأكيد وحدة أسرة هؤلاء الملوك وأصلها المحلي.

يلاحظ أن اليد اليمنى للملك والتي حملت السلاح تركت حرة في حين أن اليد اليسرى رُبطت فيها طرفي قطعة القماش، وربما يشير ذلك إلى الاستعداد لاستعمالها متى دعت الظروف بيسر وسهولة. أما غطاء الرأس فقد كان عبارة عن طاقية مشدودة على الرأس تشبه الطاقية المألوفة، والتي تعود لعهد حضارة كرمة، والتي كانت بمثابة التاج الملكي، وقد تدلى منها من الخلف شريط انتهى في الكتف الأيمن، أما من الأمام فقد انتهت عند الصدغين بقرني الكبش، رمز الإله آمون كما في النقوش الملكية في معابد المصورات الصفراء تحديداً معبد الملك أرنخماني(Hintze,1962)

يعبر النقش أيضاً عن التقاليد الدينية والمؤثرات الخارجية عليها، ويلاحظ أنه على الرغم من أن الإله أبيدماك كان هو المعبود الرئيس في تلك الفترة، لكن ذلك لم يمنع من ظهور رمز الإله آمون كجزء من الزينة الملكية فقد ظهر رأسه على هيئة تمائم في شكل رأس الكبش على ركبتي الملك، كما أن ظهور إله الشمس يشير إلى وجود الأثر الديني الخارجي على المرويين، وربما يكشف ذلك علاقات مروي الخارجية وأثر تلك العلاقات، كما ينبئ عن حرية في العقيدة وتعايش بين الأديان في تلك الفترة، ولابد أن نضيف أن هذه هي المرة الأولى التي يظهر فيها هذا الإله حسب علمنا.

نستنتج من النقش أنه حتى عهد هذا الملك (القرن الأول الميلادي) كانت مملكة مروي قوية تواجه خصومها وتتغلب عليهم، وأن الملوك كانوا لا يزالون في وضع يمكنهم من الانتصار على الأعداء، وتخليد الانتصارات على الطريقة التقليدية بنقش النقوش الملكية المعبرة عن ذلك، وقد ظهرت قوة الملك في وضعه لمجموعة الأسرى المقيدين تحت قدميه، وفي تصوير نموذج من جثث الموتى وأشلاءهم المبعثرة كدليل على هزيمتهم وانتصاره عليهم.

يبدو أن الأثر الخارجي المصري ظل موجوداً حتى ذلك الوقت، فقد ظهر في الكيفية التي يقدم فيها إله الشمس لشركارير نحو سبعة من الأسرى وقد تم تقييدهم بواسطة بسبعة حبال على الطريقة المصرية التقليدية في تقديم الأسرى والأعداء(Crowfoot. op. cit. p.88).

يوثق هذا النقش لمادة قيمة تعكس جذور بعض عناصر التراث المحلي، فالملك كان يتقلد سيفه بصورة معروفة الآن، فهي تشبه طريقة قبائل البجة وبعض القبائل العربية الأخرى في شرق البطانة، مما يشير صراحة

إلى التواصل الحضاري وعنصر الاستمرارية في التقاليد السودانية، كما أن التاج الملكي كان عبارة عن الطاقية المقرنة والتي عُرفت لاحقاً بالطاقية أم قرينات، والتي مثلت التاج الملكي للملوك والأبارشة خلال عهد الممالك المسيحية وصارت لاحقاً مكوناً رئيساً من مكونات الشارات الملكية لملوك الفونج والفور، بل إن الخليفة عبد الله التعايشى ألف فرقة أسماها المتشمرين كان أفرادها يضعون على رؤوسهم طاقية تشابه الطاقية أم قرينات (شقير، ١٩٨١، ص.٩٠٨) ، وقد انتقلت هذه الطاقية لبعض طوائف الصوفية مثل طائفة اليعقوباب (ود ضيف الله، ١٩٩٣، ص.٢٩٦).

يؤكد هذا النقش أهمية الذرة في مملكة مروي ، فإله الشمس كان يقدم للملك حزمة من قناديل الذرة إشارة للدعم والعون الاقتصادي له، وربما كانت هذا النقش يزودنا بواحد من أقدم الإشارات المصورة لقناديل الذرة، حسب علمنا، ويبدو أن الذرة كان محصول غذائي اعتمد عليه المرويون، ويفسر أهمية الذرة في الاقتصاد المروي وجود المبنى المستدير بالقرب من قصر الملكة أماني شخيتو في واد بانقا (Vercoutter,1962,pp.298-299)، والذي ربما كان صومعة أو مطمورة لحفظ الغلال، ولابد أن نذكر أن المطامير قد عُرفت في بلاد كوش منذ عهد حضارة كرمة (Bonnet,1993,p.33)، وكما هو معلوم أن هذا المحصول لا زال يمثل المحصول الغذائي الرئيس في معظم أنحاء السودان.

لم يقتصر دعم إله الشمس للملك شركارير على الناحية الاقتصادية فقط، فالنقش يبين دعم الإله العسكري للملك في تصوير الإله وهو يقدم له حبل حزم به مجموعة من الأسرى في حزمة واحدة في إشارة إلى تمكين الإله للملك على أعدائه وهزيمتهم ونصره عليهم.

المراجع العربية :

١) ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (١٩٢٠) كتاب مصر وأخبارها، نشر توري.

٢) أحمد محمد على الحاكم بمساعدة أ .هربك وج. فركوتير (١٩٨٥) ، حضارة نباتا ومروي ، تاريخ أفريقيا العام ، الجزء الثاني،(٣٠١- ٣٢٨).

٣) البلاذري، أبو الحسن بن يحيي بن جابر(١٩٨٣) فتوح البلدان، بيروت دار الكتب العلمية.

٤) المسعودي،(١٨٦٦- ١٨٧٧) مروج الذهب ومعادن الجوهر،ج٣، نشر دي منار كورتل (٩ أجزاء)، باريس.

٥) فانتيني، ج.(١٩٧٨) تاريخ الممالك المسيحية النوبية القديمة والسودان الحديث، الخرطوم.

٦) محمد إبراهيم بكر (١٩٨٣) تاريخ السودان القديم، دار المعارف، القاهرة.

٧) محمد آدم عبد الرحمن حامد (٢٠١٠م) علاقات مروي الخارجية مع دولة البطالمة ومصر الرومانية ومملكة أكسوم (٣٣٢ ق.م – ٣٥٠م) ، جامعة الخرطوم، كلية الآداب، قسم التاريخ.

٨) نعوم شقير(١٩٨١) تاريخ السودان، تحقيق وتقديم محمد إبراهيم أبو سليم، دار الجيل ، بيروت.

٩) ود ضيف الله، محمد النور(١٩٩٣) كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للنشر ، الخرطوم.

المراجع الأجنبية :

1) Adams, W.Y.(1977) Nubia Corridor to Africa, Allen Lone Press، London.

2) Arkell, A.J.(1961) A History of the Sudan from the Earliest Times to 1821, University of London. the Athlone Press.
3) Bonnet, Charles (1993) Les fouilles de Universite de Geneve A Kerma Campagne 1990-1991,Kush,Vol. XV1,Khartoum(pp.31-62.
4) Budge, E.A. Wallis (1912) Annals of the Nubian Kings،Broadway House, London.
5) Crowfoot. J.W (١٩٢٠).Old Sites in the Butana, SNR,Vol.3، No.2, Khartoum). pp.85-93.
6) Dunham, D. (1950) The Royal Cemeteries of Kush,Vol.1,El Kurru. Harvard University Press, Cambridge.
7) Hintze Fr (١٩٥٩) Preliminary Report of the Butana Expedition 1958, Kush, Vol. V11,1959, Khartoum. pp.171-196.
8) …… (١٩٦٢): Prelinary Report on the Excavation at Musawwarat esSufra, Kush, Vol. X, Khartoum.
9) Macadam, M.F.L. (1949) The Temples of Kawa,Vol.1,Oxford University Press, London.
10) Reisner, G.A.(1923) The Meroitic Kingdom of Ethiopia a Chronlogical Outline, JEA, Vol. 12, pp.34-77 .
11) Shinnie. P.L.(1976) Meroe, A Civilization of the Sudan, London.
12) Vercoutter. J.(1962) Un Palais de Candaces Contemprain d Auguste (Fouilles a Wad Ban Naga 1958-1960) Syria Revue d Art Oriental Archeologie),٣٩pp. ٢٦٩-٢٦٣.
13) Welsby D. A (1998) The Kingdom of Kush, The Napatan and Meroitic Empire, Princton Markus Wiener Publishers.